شعراء اخـرون من مدرسـة الرفض

عبدالقادر حسن أمين

ان البحوث عن شعرنا العراقي وشعرائنا ما زالت قليلة • ولعـل موجة الشعر الحر والنقاش حوله كانتا من المعوقات ، اذ استطاع فريـق الشباب ، بما وهب من حيوية وحماسة ، وما اوتي من فرص النشـر ، والاستحواذ على وسائل الاعلام ان يشغل نفسه ، ويشغل من حولـه ، ويستقطب الانظار متعمدا اهمال التراث الشعرى اهمالا تاما ، حتى في المؤتمرات الادبية ، والاسواق الشعرية كانت تمر القصيدة التقليديـة باستحياء ، وسط المنظومات الجديدة ، وكان يصغي اليها بحذر يشوبـه خوف الاتهام بالرجعية ، بأعتبار ان المنظومة الجديدة قد تبنت الثـورة المعاصرة ، واحتكرتها لنفسها ، واستطاعت ـ بجماهيريتها ـ ان تخدمها أجل خدمة •

ان الصراع بين الجديد والقديم في مسألة الشعر : شكله ، ومضمونه تبدو واهية النتائج ، فليس من مصلحة الشعر الطليق ازاحة الشـعر العمودى ، اذ ان ذلك لايؤسس مجدا ، ولا يعبد سبيلا [1] ••• فقديما تفتحت ازاهير شعر الموشحات في هيئة ثورة عارمة ، بعد ان ضاقت مجالي الطبيعة الجميلة بالقيود ، فكسّرتها ، وصاغتها صياغات جديدة مترفة ، سمحت للكلمة الجميلة الظريفة ، والنسمات العليلة ، والشذى المعـطر ان يأخذ مكانه في الضرب الجديد ، واعتبر وليدا شرعيا ، انجبته عبقرية الشعر العربي ، فعمّق ثراءه وأرفده بمزيد من التلون والتجديد •

ان ما تراكم من غبار النسيان على بعض شعرائنا المحدثين ، قد يكون من بعض أسبابه الخصومة القائمة المعلنة كما اسلفت ، وبرغم ذلك فقـد

تهيأت الظروف لبعض فضلائنا من الاساتذة ان يعانوا الكتابة عن شعراء القرنين التاسع عشر والعشرين ، واذكر منهم على سبيل التمثيل لا الحصر: الدكتور يوسف عز الدين ، فقد اغنى المكتبة العراقية بمراجع مهمة ، والاستاذ الشاعر ابراهيم الوائلي ، بدراسته القيمة (الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ه) ، والدكتور الاستاذ داود سلوم ، فقد اتسمت دراساته بالعمق والشمول ... الخ .

ان مدرسة الرفض تتسع لتضم اليها الشاعرين : كمال نصرت ، وعبدالقادر الناصرى . كلاهما عاش غريبا عن مجتمعه ، غربة تختلف الوانها ومظاهرها وعللها باختلاف المنابع التي عملت على تكوينها ، وتظافر الفرص على فرزها وابرازها ، وكلاهما خضع لتأثير الرصافي والزهاوى بحكم الصلة القريبة ، او معاصرة التأثير والتأثر البالغين الى مشارف الخمسينات والستينات .

عاش كمال منبت [٢] الصلة بالناس ، لا تربطه بهم عاطفة رحم او صلة قرابة ، مجتث الجذور بالمجتمع وبمن يحيط به ، وتكاد تكون حياته سلسلة من المآسى متصلة الحلقات ، وان لم يبدُ ذلك جليا في شعره ، فقد اصطنع حاجزا بينه وبين احساساته الداخلية ، فلم يسمح لها بأن تنضح الى السطح ، وتترك بصماتها على شعره وآثاره الادبية ، بل استمر (يشارك في المناسبات التي ارتضاها لنفسه ولشعره ، او التي استهواها أدبه وشعره ، ، حتى تجمعت لديه حصيلة ليست دون غيرها مما نظم معاصروه واترابه ، فكانت تلك الحصيلة ديوانا) [٣] .

ترعرع الرجل في أحضان اليتم ، وكان ضئيل الحظ من الدراسة المنظمة ، لان الموت كان يلاحق اقرباءه الادنين واحدا بعد اخر ، في فترات قصيرة لا يفصل بينها غير سنة او سنتين .

وبكثير من العناء والجهد استطاع ان ينال من العربية وعلومها ما

أهلّه لنظم الشعر الجيد ، ذى السلاسة الظاهرة ، ولهذا كان معروف الرصافي (يعجب كلّ العجب كيف استطاع بجرمه الضئيل وامكانياته المحدودة ان يحرز ما أحرز من مؤهلات ، قد يحرزها من هو اكبر منه شهرة ، واعظم منه قدرة ، ولكن احرازها من مثل الاستاذ كمال نصرت كان مبعث التقدير الصادق له ، والاكبار غير المتكلف لشخصه) [٤] .

كان المفروض ان نلمس في نتاج كمال حرارة الثورة اللاهبة فمن عانى مثل معاناته ، وعاش نظير حياته ، لابد ان يعلنها حربا حارقة على الفساد والظلم الاجتماعي ، فما الذى يخشاه الفقير اذا آمن بالثورة ودعا اليها ، ولكن يبدو ان المواضعات الاجتماعية ، والالتزام بالظروف الناجمة ، والمناسبات السانحة ، ناهيك بضعفه الجسمي وقماءته وعاهته ... من العوامل التي اوهنت قوة الاحتمال ، وقصرت من أنفاسه على المطاولة ، ولا مراء ان النفس ان لم ترفدها قوى الجسم بما يعينها على الاحتمال استكانت ولانت ، واضطربت لديها موازين القياس والتدقيق والاحكام ، وهذا ليس حكما عاما ولكنه محتمل الوقوع جدا ، فالقراءات في سير المناضلين ، ومقارعي الاستبداد تنمّ عن قدرات في المعنوية والذاتية تلين الحديد ، وتهد الحجر .

ان اخلاص الشاعر للمناسبات أورث الاضطراب في منهجه ، وأخرجه عن سمت الرافضين الجادين ، وغدا اسيرا من غير ارادة فاعلة قائدة ، واستوت عنده المفاهيم المتضادة المتصارعة غير المتهادنة ، فنحن نقرأ قصائد من امثال انتقال العرش (ص ٨٩) ، وفي مهرجان التاج (ص ١٠٢)، وميلاد الملك ويوم الملك (ص ١٠٢ و ص ١١٤) . ومن الناحية الاخرى نرى (ثورة الجيش ص ٢٥) ، و (شعب تموز ص ٧) ، (و أفق ياشعب ص ١١) ، (ومعركة الجسر ص ٢٥) ، والى (وحدتنا الكبرى ص ٣٢) ... وغير ذلك من الموضوعات الوالجة في صميم معركة

الجماهير وتلك مؤشرات لا لبس فيها الى فقدان الرؤية السياسية ، بل الوطنية ، وكثافة العتمة في المنظورات الشعرية •

ان مشكلات الوطن وجراحه لايمكن ان تجد لها العلاج الناجع ، ان لم نضع الاصبع على الداء ، ونجتث جذوره ، بأن نشد انفسنا الى خط النضال بأحكام ، وليس من الضروري ان يكون الخط انتمائيا ، ولكن المهم ان نضفي التنسيق على اعمالنا ، ونؤلف مصادر الايحاء ، ونتلافى بذلك جمع النقيض الى النقيض •

مظاهر الرفض في شعر كمال نصرت لاتتعدى هموم الجماهير انذاك، بل تتبناها في الاسلوب العام ، وتعجز ان تغنيها ، وتضيف اليها ، فلهذا لم تستطع ان تشق لها في الارض الطيبة رافدا يستقل برفضه ، ويعرف باسمه •

وأول مظاهر الرفض : الغضب على حكم الانكليز والمستعمرين عامة، يقول منددا بحكمهم [٥] :

تركتم مقاليد الامور لدولة ... تريد بكم شراً وتنوى لكم سحقا
ونمتم على ضيم وعشتم أذلة ... عبيدا أسارى تخدم الاعين الزرقا

وقال في قصيدة اخرى [٦] :

ألا سحقا لرهط السوء سحقا ... وللمستعمرين الغاصبينا
وما المستعمرون سوى أناس ... على استئصالنا متواطئينا

ويذهب في مقطعاته الاخرى نفس المذهب ، ففي (كالاعصار) ، (وحطموا القيد) دعوة الى الثورة واسترخاص النفس ، قال [٧] :

بئس الحياة على الهوان وبئس ما
نال الفتى بالذل من أوطار

وقال [٨] :

فهبوا حطموا القيدا ... بعزم يفلق الصخرا
وردوا الكيد بالكيد ... وبالشر ادرأوا الشرا

ومكمن المأساة في الشاعر حين تخيب ظنّه القريحة فلا يستطيع ان يتصيد المفردات الملائمة ، فيعتبر النضال من اجل الحرية ومقارعة شرور المستعمرين شرّاً ، ويتناسى انها جهاد محتم ، وحرب مقدسة ...

ولا غنى لكل شاعر عراقي من ان يعرّج على فلسطين ، لانهـــا تعايشنا في كل لحظة ، فقد انستنا هموم الدنيا جمعاء ، وبقيت تستعر في قلوبنا نارا تتلظى ، وايقظت فينا كوامن الغضب والحقد ، ولن يرضى شاعر عربي لنفسه الصمت ازاء المأساة الدامية ، لأن ذلك جارح لوطنيته ، غاض من قدره وسمعته ، ولهذا ادلى كمال بدلوه ، وان كان ما استقى واغترف قليل اذا قيس بالفيض الزاخر في شعر المناسبات ذى الكلمات المحنّطة ، الفارغة من المحتوى الحسي والانساني ، ففي (فلسطين) ، (ولبيك يافلسطين)، (وجونسون) [٩] تذكير بأمجادنا السابقة ، ونيل من الصهيونية ، ونقـد مع تهديد ووعيد لبريطانيا وسياستها المتحيّزة ، واشادة كبيرة بشجاعة العرب وبلائهم في الحـروب [١٠] :

اذا استنجدتنا الفيت منـــا ... جحاجح في مجالدة الاعـادى
نكافح عن حماك ونصطليهـا ... بكل مدجج صعب القيـــاد
ونبـذل دونك الارواح بـذلا ... رخيصا يوم ننـدب للجهاد
ونغشاها ولا نخشى شـــعوبا ... غداة النقع بالمهج الصـوادى

ان ما ينظمه كمال يقف على قدم المساواة مع نتاج الكثير من شعرائنا، فهو يحسن اختيار المفردة الجيدة ، ويشحنها بالمعنى الجيد ، ويرفدهـا بالنغمات الموسيقية العروضية المناسبة ، ولكن الجدة تخذله ، فهو يعمد الى ما يسمع ويقرأ ، ويتردد فيجعل منه بضاعته المزجاة ، ناهيك بخطه الفكرى الملتوى المتعرّج ، فقد بلغ به حسن الظن درجة عالية حين تقدم يرجو ويستعطف الملك ان يغيث المسجد الاقصى [١١] ، وهذا من اسباب سقوط الرفض عند الشاعر ، لان استعادة الارض ، والنضال من اجلها مهمـــة

الجماهير في الاساس لا مهمة الملك ، فمخاطبتها ومناغاة احاسيسها ، وتأجيج نار الحقد في صدورها ، حتى يتفجّر التحدى في اعماقها ، الوظيفة الاولى لشاعر النضال ، ان الادراك الواعي يأخذ بيد الانسان الى الجرأة والصلابة، والى أهمال الذات والتجرد من الانانية ، فيصفو لقضايا بلاده ، ويخصها بالاهتمام فتعلو مكانته ويكتسب حب الجماهير السرمدى وتقديرها ... والا القي في دهاليز العتمة ، وطواه غبار النسيان .

وعاود شاعرنا عمى الالوان ثانية حين خذلته تصوراته ، وانتفخ شراعه بأهواء الاوهام فجمح بعيدا عن الجماهير صاحبة القضية . الى التفجع على الافراد [١٢] ، فبكاهم كأنهم حققوا النصر المبين للبلد ، ونسى ان امته ما زالت تعيش المأساة بأبعادها المختلفة ...

وعلى شاكلة هذا الرفض وهشاشته ورخاوته كان تصديه للوضع الداخلي وبرمه بالساسة ، ونقمته على ما ساد البلد من سوء انذاك قال [١٣] :

أفي كل يوم في العراق وزارة ... تقوم وأخرى بعدها في تثبت
فلا هذه ترجى لدفع ملمة ... ولا هذه تسعى لتحرير أمتي

وقال [١٤] :

تداجون في اقوالكم وافعالكم ... وليس لكم هم سوى قبض راتب
تعيشون في طول البلاد وعرضها ... فسادا ولكن مثل عبث المقانب
فلا وازعاً تخشونه او محاسباً ... وليس على اعمالكم من مراقب

لا ريب في حدة مفردات هذه الابيات وضجيج الغضب في مضامينها ، والجرأة في خطابيتها ، وهذا كلّه لاغبار عليه ، ولكن لا يصنع من كمال مناضلا بسبب الاضطراب في خطه القومي ، والتشتت العقائدى في تناوله للموضوعات الوطنية ، والنقلة السريعة بين الاطراف المتناقضة المتضادة . ولعلّ الرجعة الى السلوك الجماهيرى ، والايمان بالتغيير

الثورى قد يكون مصانعة ومسايرة لاول وهلة ، ولكنه مطلوب من قادة الفكر انسجاما مع التغيرات الجذرية المتفاعلة ، وهكذا كان شأن الرجل حين انبثقت ثورة الرابع عشر من تموز ، قال [١٥] :

انقذت يا جيش العراق الموطنا ... من زمرة عبثت هناك وههنا

وقال [١٦] :

يا شعب ثرت على المظالم ثورة ... فيها اصيب الظالمون بفاقر
دكت معاقلهم بضربة لازب ... دوّت لها الدنيا ، وجرأة ثائر

وقال [١٧] :

اليوم يملي عليك الصارم الخذم ... فأكتب مفاخر ما يمليه يا قلم
واذكر بطولات جيش زاده عظما ... في عين شانئه الاقدام والهمم

وقال في أفق يا شعب [١٨] :

لقد طال ليلي والخليون نوّم ... كأن على عيني المنام محرّم
الا أيها الشعب الذى ظل راقدا ... أفق وأحذر الخصم الذى ليس يرحم

وأجمل ما في الرجل ايمانه الجديد بالوحدة العربية ، وهو مفهوم ثوري ومنطلق نضالي ، وربما كان من وحي الرابع عشر من تموز ، اذ ليس هناك ما يؤرخ مقطوعته اليتيمة (الى وحدتنا الكبرى) •

هلمي امة العرب ... الى وحدتنا الكبرى
وهيّا سيرى بالركب ... وشقي دربها الوعرا

أيكون ذلك كله من حصاد اصطياد المناسبة التي أولع بها الشاعر منذ عرف بنظم الشعر ، ام انها العودة والاقتناع بجدوى الثورة والتغيير الجذرى ؟ ! •• هل توصل اخيرا الى ان يكتشف نفسه ، ويسبر واقعه ،

ويتخذ مساره في فلك الثائرين الرافضين ، بعد أن أمضّه الضياع في دروب الحياة ، ان ما عاناه من الغربة أفقد توازنه ، وانصهرت في مخيلته ابعاد الزمن [٢٠] :

أياك يا مستقبلي انشد ... فأين انت يا ترى توجد
أفي السموات انعلا ساكن ... أم تحت أطباق الثرى ترقد

ثم انتهى الى الحقيقة المرة ، نتيجة الصراع بين النفس الحساسة وقرف الحقائق المجردة ، وجليد الخيبة القاتلة [٢١] :

أني سئمت العيش في موطن ... به الكريم الحر مستعبد
كم جاهل قد نال ما يبتغي ... وصار من جهل به يعبد
ويدعي الفضل به ناقص ... وينكر الفضل به سيد
وليس للعالم فيه سوى ... مسكنة تدمى لها الاكبد
وا أسفاً ابكي على أمة ... عنها تناءى المجد والسؤدد
فلا اتحاد لا ولا ألفة ... ولا اجتهاد لا ولا مقصد

كان كمال نصرت من معاصرى الشاعر عبدالقادر الناصرى ، والوشيجة الاولى التي تربطهما هي الغربة ، وقد ازدادت في حياة الناصرى وفنه عمقا واتساعا بحيث وجد في الموت راحة واستقرارا [٢٢] :

انّ في الموت راحة لشقي ... يقطع العمر بالعنا والعذاب
ليس بين الحياة والموت الا ... خطوات محفوفة بالصعاب
فعبور الحياة هم جسيم ... وبلوغ الممات بعض اكتئاب
فالسعيد السعيد من رام عنها ... طالبا راحة الردى والتراب

كانت الحياة اقوى من ارادته الواهنة المستكينة ، عرف الدموع واستساغها واستمرأها ، (والذى رافق الناصرى او اتصل به او سمع شعره في أخريات ايامه ، او شاهده وقد أسف بالادمان على الخمرة ،

انصرافا عن التفكير في الحياة ، كان يدرك بسهولة ، وبلا كبير عناء ان شاعرنا قد يرم بالحياة • وسخط على الوجود دون ان يظهر ذلك جهارا •• فكان لايتحدث الا والدمعة بين ماقيه ، ولا ينشد الا والعبرة تكاد تخنق عباراته) (٢٣) •

ان الادمان على الخمرة ، ومعاقرة بنت الحان هروب من الواقع ، وتعلق بخيوط العنكبوت الواهية ، والضياع الكبير في ساحات العمل المتسعة •

ان النفس الكبيرة بمقدورها ، عن طريق السخرية بمواضعات الحياة ان تعبر الجسر الى الشاطيء الاخر حيث تتلمس مكانها الصحيح في القافلة السائرة : لتتغذى بالعنف ، وتنمو بالجرأة ، وتتسم بالاقدام •• لقد عاش الناصرى فقيرا معدما محطم الاعصاب ، خائر العزيمة ، ولو راجع نفسه لوجدها ضمن مجموعة جماهيرية تعد بالملايين ، فأذا بكت بعض هذه الجماهير واقعها المؤلم ، دون ان تثور عليه ، فذلك جريرة قادة الفكر من الشعراء وارباب القلم ، الذين يشاركونهم البكاء بحرقة واستسلام ميتافيزيقي ، وسوداوية تنشر الضباب في الرؤية المستقبلية ، وتشيع الخدر الافيوني في السواعد المقاتلة •

ان رومانسية الناصرى لاتتفق مع قضية الانسان العربي ، في عصر التحديات والمواجهة العنيدة ، فالرقة والعواطف المسرفة والانفعال ، وتأمل مناظر الطبيعة في الغابات والبحيرات ، والاحتراق بلهيب الحب : لا مكان له في عالم الشعر الرافض ، والرجل لم يكن يقصد ذلك قصدا ، انما تضافر عوامل كثيرة واستسلامه لتلك العوامل دون مقاومة جعل منه كساقية رقراقة تستجيب لتعرجات الارض ، ولا تستطيع ان تكون تيارا دافقا يجرف امامه كل عقبة ، لذلك عشق المأساة ، واستراح الى الدموع ، وبما انه كان كالصفحة الشفافة الرقيقة سريعة التأثر بما تتعرض له فقد

وقع فريسة التقليد لديوان أفاعي الفردوس (ومن يقرأ قصيدة الناصرى : ناذورة ، يتذكر على الفور قصيدة أبي شبكة في هيكل الشهوات ، فمواطن التأثر جلية واضحة) [٢٤] ... ان تسكع الشاعر في دروب اللامنهجية ، يعيب وجدانه الشعرى ، ويطمس معالم اخلاقيته ، ويجعله صريع تأثيرات مختلفة ، لاجدوى منها ، وقد عرف نوعا واحدا من النساء اولئك اللاتي كتب لهن سوء الحظ ان يكن ضحايا المجتمع ، ولهذا لم يكن الحب في شريعته ، تساميا وتقديسا لايات الخلق المبدعة في العلاقة الطبيعية المشروعة بين الرجل والمرأة بل شهوات ولذات [٢٥] :

شوق نزا بين الضلوع فهيجت نيرانه الحرى فجوري في دمي

وقـــال [٢٦] :

قلبي لديك فصبي من جداوله خمر الفجور وردى لاعج الجسد

ان انحطاط منظوراته الى المرأة واعتبارها كمتعة رخيصة حصـــر اهتمامه في النهدين والفخذين والشفتين ، وما يسكت عوامل الشـــــهوة وعويلها في اوصاله ، وكان مثاله الاول (تايس) لاناتول فرانسا ، بنت الخطيئة ، وما تقيأ بودلير من أشعار الرجس ، وقراءاته في الشعر اللبناني العادى خلفت أسوأ الاثر في نتاجه الشعرى ، قـــال [٢٧] :

شفتاك ينبوع الرحيق السلسل فدعي فمي يروى بعذب المنهل

★ ★ ★

نهداك برعمتان لم تتفتحـــــا بيد الانوثة والجمال الاكمـل
كنزان قد حويا نفائس هيكل ختمتهما الدنيا بقفل مســـدل

★ ★ ★

ولقد نظمت اليهـما أغرودة عزت على (بودلير) وابن الموصل

★ ★ ★

عيناك الهبتا دمـــاء حشاشتي فجرت تؤج كمارج في مفصلي

★ ★ ★

تايبس قبلك كم غفت في مضجع الغرباء من حضن لاخـر تعتلي
كانت مثال العبـــد في شهواتها من مضجع قفر لاخـــر مخضل

ان الرؤية المتفتحة والنظرة الصائبة تقودان الى مفهوم اعمق للمراة البغي ... انها جريرة المجتمع البرجوازى وخطيئته الكبرى ، وسقوطها بتاثيراته وبحكم الطبقية التي يعيشها ذلك المجتمع المنقسم على نفسه الى طبقة اشراف ، وطبقة عوام وسوقه . ان الناصرى ، قد جعل المراة البغي ركيزة جانب كبير من فنه الشعرى : لم يدر بخلده يوما ان يتقصى أسباب السقوط في عالمنا القاسي ، ولم يعن له يوما ان يتقصى او يصـــرح الى فساد المجتمع وتواطئه في بث السموم وزرع الجريمة . ان المراة ليست ساقين يمارس عليها الرجل مغامراته الجنسية وكفى ، ان هي الا عالـــم النور ، ومنبع الحياة ، وقيمة الرجل من قيمتها ، ان جعلناها الذبيحـــة والخاطئة والمتهمة ، فكأنما رفعنا اصبع الاتهام الى امهاتنا واخواتنا وبناتنا .

ليس مما يشرف شاعر الرفض ان يعوم في مواضعات المجتمـــع الرأسمالي ، وان يبارك الشهوة ، لا الحس الجمالي ، ويشجع عليها ، لمجرد ايمانه بأن الدنيا فانية ، ولن يفيدنا الندم والبـكاء ـ كما يـــرى شاعرنا ـ اذا اضعنا فرص اللذات ، قـــال [٢٨] :

ماذا تفيـــدك يا هلوك مناحة ما دام دهرك كالصفيح الجندل
فلتلقطي اللذات من ثمر الهوى ما دام حسنك زاهيا لم يذبل
ولتصهرى اعصان كل خطيئة حمقاء اوجدها الاله وعجلي
العصر عصرك يا بغية فأملأى ابريق لذات الخنا من جدول

كان من الممكن جدا ان يصبح الناصرى شاعر الجمال الرفيـــع المتألق ، فقد اوتي شاعرية فذة ، وديباجة ناعمة ، وبرغم الروائح العفنة

التي تتصاعد بين حين واخر في شعر المرأة والخمرة، الا ان شعورا بالارتياح والغبطة يسيطر على أحاسيسك لجمال التركيب ، وحسن الصياغة والمهارة في التقاط بعض المعاني الجميلة .

★ ★ ★

ذلك رفضه الاجتماعي المتخاذل ، اما رفضه السياسي فنستطيع ان نستشف بعض رؤاه السياسية من اطلاقه على نفسه لقب شاعر الحرية الحمراء [٢٩] :

وليعلم القوم الطغاة بأنني ... انا شاعر الحرية الحمراء
سأظل اهتف بأسمها مترنماً ... حتى أخضّب جرحها بدمائي

وكان من حسن حظ الشعر العراقي والحركة الادبية لو قدّر للرجل ان يفعل ذلك ، ويكرس جهوده ونتاجه لهذه الناحية الشريفة الرفيعة الشأن ، ولتعطر اسمه وسار على ألسنة الركبان ، واحتل أجمل مكان في التاريخ الادبي والنضالي ، ومع ذلك فهو لم يغلق عواطفه بعيدا عن الساحة النضالية ، فقد استقرّ في نفسه حب المناضلين ، وادرك بعمق ان سبيل الانعتاق هو النضال ... ، قل في مصارع الاحرار يخاطب الوطن [٣٠] :

لولا القرابين التي قدّمتها ... لغدوت طعمة عصبة اشرار
قل للضحايا الراقدين بحفرة ... لم تعد غير التسعة الاشبار
خالدين على الزمان وذكرهم ... باق بقاء الكوكب السيّار
لولا نضالكم وسفك دمائكم ... لم تنج أمتكم من استعمار

برغم ان الشاعر يصوغ تلك المعاني الكبيرة بأبسط الكلام واخف المفردات ، الا انها جاءت عذبة المذاق ، وجمالها يكمن في شرف مضامينها، ولن يرهق الشاعر المناضل قريضه بأعباء الكلمات الغريبة ، فالبساطة الوسيلة

القريبة جدا من قلوب الجماهير ، وسيرورة الشعر وانتشاره الفسيح لايقوم ابدا على قواعد الغرابة والتعقيد ، وقراءاته الكثيرة في الشعر العربي قديمه وحديثه هيأت له رواضع من قرائح الاخرين ، تنساب هادئة الى نتاجه ، ففي قوله [٣١] :

حرية الامم الضعيفة دوحـــة تسقى ولكـن بالـدم الفـوار
وأرى الممالك لايشاد كيانهـا بسوى جماجم فتيـة أحرار
جثث الضحايا الطاهرات هي التي نشرت لواء العدل في الامصار

كثير من نتائج التأمل في شعر شوقي ، وبخاصة قصيدته دمشق ومنها :

وللحـــرية الحـمراء باب بكل يـــد مضرجة يـــدق

كما ان قصيدة (يا فلسطين) [٣٢] ، تزخر ببصمات بشارة الخوري الشاعر اللبناني ، في قصيدته المشهورة (يا جهادا صفق المجد له) .

ان فكرة النضال من أجل الاستقلال ، أو الايمان بالقوة والعنـف كأقرب سبيل للظفر بالحريات ليست حديثة ، او ابتكارا عصريا ، انمـا هي طبيعة الصراع بين القوى والضعيف ، تفرض نفسها فرضا ، والايمان بسواها خداع وتهرب من الواقع ، وقد آمن الناصرى بهذا المنطلق ، ودعا اليه بأساليبه الخاصة ، فالضحايا والدماء وسيلتنا الى الحرية ، قـال [٣٣] :

بالضحايا وبالـدم المســفوك تستقلُّ الشعوب لا بالصكوك
ونضحي والموت أشهى مذاقاً من حيـاة تلفعت بالشـكوك

ولابد في مثل هذه المجالي من أن نمعن النظر فيما يقول الشعراء ، فالكثير منهم خص فلسطين بالنصيب الاوفر من نتاجه ، وكانت تتفجـر في نفوسهم نيرانا اقرب الى حرائق البراكين ، وذوب حممها ، ولكن لماذا تباينت مراكزهم في اعماق الجماهير ، واختلفت سيرورتهم على السنتهم .. وقد يكون

ذلك بسبب من تجاربهم الشعرية ، ومبلغ الصدق في تلك التجربة ، ومقدار التوافق بين النظرية والتطبيق •

استطاع بعضهم ان يرسم الصورة الحقيقية المشرقة للمناضل : عـــلى انهم يزرعون سنابل القمح ، ويمدون الحياة بالاستمرار ، وينسجون من خيوط الشمس اكاليل النصر • ن

وشعر الناصرى حصر في محاور ثلاثة : المرأة البغي والخمـــرة ، والنضال الرافض للمواضعات في بلاده وفلسطين ، ثم موقفه المشّهر من الشيوعية في الستينات ، وقد يطلق عليهم احيانا لقب الرفاق ، سخرية بهم ونيلا من مسمياتهم ، وغلب عليه المحور الاول وعرف به ، بصفته الجانب الذى اضفى عليه من روحه وجهده الكثير ، وكان صادقا فيه كل الصدق، ولست ازعم انه لم يكن صادقا في المحورين الاخرين ، ولكن فاضت على صدقه المناسبة ، وموضوعات الساعة ، التي لا مفر للشاعر ـ اى شاعر ـ أن يقول فيها ، والا عوقب وحوسب ، في مجتمع دقيق الملاحظة يســـأل ويراقب •

وبرغم الضياع الكبير الذى عاشه شاعرنا ، وهزائمه أمام الحيـــاة متمثلا في بكائه ودموعه ، الا انه استطاع ان يروى ـ في ساعات الصحو ـ بذرة الحياة ، ليجعل منها شجرة باسقة ، يتفيأ الانسان ظلالها الوارفة •

ان الدعوة الى الثورة على الفساد والظلم الاجتماعي هو بمثابة الدعوة الى الحب والحرية ، وتمجيد الثائرين والشهداء ، حراس الانسانيـــة وحصن الاجيال الحصين ، تقديس لارادة الرب ، ولا يضير (تحية للثائر العربي) ، من ان فكرتها مطروقة متداولة ، فقد اتسمت بالطلاوة وخصت بقسط غير قليل من العذوبة والجمال ، قـــال [٣٤] :

والناقمـــون عـــلى الطغاة أباة القانعـون بذلهـم أمـــوات
وحياة كل مصّفد بقيـــوده موت ، وموت الثائرين حيـاة

فاستوف دينك من بقية سادة ... هم فوق الحياة فتات
واجرِ الدماء لكي تحرر امة ... من جوعها تتنعم السادات
نعي الحياة وبؤسها سيان في ... عي نظر الذين حياتهم ثورات

وشبيه بهذه المقطوعة قصيدة الشهيد ، فالشهادة فخر ومجد وتسام في الوجود ، ورعاية الامال الوليدة في صدور الاحرار ، وما الى ذلك من معان حسان ودرر ناصعة البياض ، استطاع الناصرى ، بهذه القصيدة ، ان يستخرج احسن ما في نفسه ، وان كنت استشعر في بعض جوانبها روح علي الجارم ، ومنطلقاته في رائعته (بغداد يا بلد الرشيد) ، قال [٣٥] :

لولا دم الشهداء ظل الشعب يرسف بالقيود
يقتاده الطاغي المنافق للمذلة والرقود
كالشاة ترضخ للمدى والموت في حزّ الوريد
يطوى الجراح على الجراح وهمّه طي الكبود

لقد استحقت هذه القصيدة شرف الكلمة والمضمون ، ولكن لو قورنت بقصيدة الشاعر الفلسطيني (ابراهيم طوقان) لبدت تقريرية جدا، تسرع في الاقتباس ، وتقتصد في نيرانها الثائرة ، وتدور على نفسها في بعض معانيها ، في حين ان شهيد طوقان يوقد الحماسة في الاوصال ، وتحرك موسيقاها كل جارحة ، وكل كلمة فيها تدعو الى القوة ، وشدة البأس ، وترفع مستويات العزة ، وتحبب الفداء الى النفس ، قال [٣٦] :

عبس الخطب فأبتسم وطغى الهول فأقتحم
رابط الجأش والنهى ثابت القلب والقدم
نفسه طوع همة وجمت دونها الهمم
تلتقي في مزاجها بالاعاصير والحمم
تجمع الهائج الخضم الى الراسخ الاشم

لا تقـــل ايـــن جســـمه واســـمه في فـــم الزمـن
انـــه كوكب الهـــــدى لاح في غيهب المحـــــن

وهو لا يفتأ يذكر ان الدم هو طريق الحرية الحمراء ، وينبغي على اولئك المستكينين ، المتخاذلين ، الذين اخمد الخوف في عروقهم جذوة الحماسة ، فأتاحوا الفرص للسفلة ان يتحكموا ، وان يعيثوا في الارض فسادا ، والموت اجدر بأمة من هذا النوع ، فسيلعنها التاريخ ، وتلفظهـــا الامجاد •

التفاتات الناصرى في شعره الرافض الى الوراء ، الى تاريخ الامة كثيرة ، يدعوها الى اليقظة ، والتأسي المجيد ، يقول [٣٧] :

لو كان بين كماة الفتح (معتصم) ما داس قدسك من شذاذهم رجل
تلفت المجد يدعـــونا لنصرتـــه ما بال دعوته في السمع لاتصـــل
فليلعن المجـــد والتاريـخ سيرتنـا فأنَ تاريخنا من فعلنا خجـــل

وفي قصيدة اخرى وسمت (بصوت فلسطين) [٣٨] ، مثل ذلـــك الصراخ بالتاريخ والتذكير بالوقائع الحربية ، والاشادة بشغف العـــرب قاطبة بالعلياء ، ويعرّج على صلاح الدين الايوبي ليذكر بطولاته ، وما الى ذلك من امجاد عربية سالفة •

ترى ما جدوى ان يكون تاريخنا حافلا بالامجاد ، ويكون حاضرنا بهذا السوء ؟ ! لماذا لم يستطع شاعرنا ان يعي واقعنا المؤلم ، والعلـــة في ضياع فلسطين ؟ !

المشكلة تكمن في انطلاق الشاعر من غير التزام ، ومن غير تفهـــم عميق لطبيعة العلاقات الدولية ، وتحكم الاستعمار ، واصطناعه الكثـــير من العمـــلاء والمحالفين ، وهذا مما فرض على معظم معاركنا الخيبـــة والخسران ••

ان الناصرى لم يكن يجهل الواقع كل الجهل ، بل كان ملما به ، وقد آثر الاشارة المقتضبة اليه ، واوجز التعبير عنه ، وترك التشخيص الدقيق الى العموميات ، وشغل نفسه بالمعارك الهامشية ، واتخذ موقفه بين المتنازعين يناصر فريقا دون فريق على الصعيد الاقليمي .

ان مثل هذه المعارك استهلاك واستنزاف لجهودنا من غير طائل ، وشاعر الامة لسان صادق معبر عن مطامحها واهدافها ، والمفروض ان تسمو منظوراته الى افق القومية الواسع ، وكاد الناصرى يبلغ تلك المرتبة لولا اغراقه في الذاتية والرومانسية ، فقد حوى شعره لمحات الى الوحدة، ودعوة اليها [٣٩] :

وحدة العرب وهي أم رؤوم قد دعتكم الى المعالي فسيروا
انّما نحن امة ، لا شعوب فرّق الخلف بينها والاجير

ذلك حسّ كريم لو تهيأت له الاجواء لنما وتبلور الى عقيدة راسخة رافضة ، انه كان بامس الحاجة ان ينفعل بمشكلات العرب في ساحاتها الممتدة ، وان يلتصق بمعارك الامة ، وهذا يحتاج الى صفاء ذهن ، وبعد نظر ، لتتكشف طبيعة المأساة ، ويدفع ما بدأه وفرزه شعره الى تيار الوعي العام ، اننا ما زلنا وسنظلّ نؤمن بأن الشعر اداة فعالة في تعبئة الاحساس بالاخطار المداهمة ، ولولا الغيوم الداكنة في حياة الناصرى ، وانشغاله بمعوقات الحياة اليومية ، وسلاسل الخيبة والاخفاق ، التي كانت تحكم الشدّ على ذهنيته ، وتصرف عواطفه عن هموم أمته ، لغدا الناصرى في الطليعة من شعراء الرفض العراقيين . ولكنه مضطرب متناقض ، تأمل تناقضه في القصيدة الواحدة ، وتذبذبه بين اليأس القاتل ، والرجاء الفسيح ، قال [٤٠] :

لقد شوّه الارض بأسي العقيم فأضحت مروج الروابي يباب
معالم دنياى مغبرة ينبىء عنها نعيب الغراب

هنـــا طلل موحش رسمه عليـه من القبح أوفى الثياب
ومقبـــرة زوقتهـا المنـــون لها بـــين انحائهـا الف باب
تحولت الارض من جنـــة الى عدَم شـــامل في الرحـاب

ولا ريب في انها سوداوية معتمة وهروب من الحياة ، والنظر اليها من جوانبها الآسية ، واغفال تام لجمال الخلق ، وروعة الكون العظيم •

ويبدو في القصيدة نفسها كمال مؤمنا بالقوة ، والايمان بالقـــوة ، ايمان بالحياة والعمل على استمراريتها واغنائها بكل طريف ولطيـــف ، قـــال [٤١] :

برئت مـــن الالـــم المشتـــهى اذا انا لم أخطُ فـوق الرقاب
ولم انفض القلب مـــن رحمة اجوز بها فوق هام الصـــعاب
فأسحق حتى ضعاف الـــورى وأبغض حتى أنال الطـــلاب
وأسرى الى مأربـــي مسرعا بعزم يفـلُ الصخور الصلاب
وان كـان دربي كثير الاذى مشيت على شـــوكه لا أهاب
فمن لم يكـــن في الورى فاتكا ستفتك فيه رؤوس الحـــراب

ان الرجل في كثير من شعره يجمع بين النقيضين دون ان يعي ذلك فقد ضم استسلامية معيبة الى اقدام مشرف مستمد من روحية ابي القاسم الشابي ، شاعر تونس الشهيد •

ومردّ التناقض هذا ـ كما ارجح ـ اصابته بأنفصام الشخصية ، التي تتمثل في النقلة السريعة من النقيض الى النقيض دون مبرر ، ودون وعي•

بعد : كمال نصرت وعبدالقادر الناصرى من شعراء الوسط ، اعني بذلك نتاجهما من حيث الكم والكيف ، اذ انهما لم يفيضا بشعرهما فيبلغا مرتبة الفحول من شعراء العراق ، ارباب الدواوين الكثيرة الضخمة ، كما لا يصح اعتبارهما من المقلين ايضا ، فقد اشغلا الصحافة ، وغذّاها زمنا

ليس بالقصير ، وعرفا بالمحافل والمناسبات ، وطبع لكل واحد منهما ديوان ذو شـــأن وحظـــر •

وقدّر لشاعرينا الغربة ، فقد عاشا من الحياة على هامشها مهملين ، تكتنفهما سحب اليأس والفوضى والعدم ، وقد قاسيا من الآلام الكثير ، لانهما ـ كشاعرين ـ رزقا حسا مرهفا ينفعل بالاحداث ، ويستجيـــب كثيرا للمواضعات الاجتماعية ، حتى تغلّبت العتمة على دوافع القريض، ونوازع النظم في وجدانهما ، وربما اضطرتهما الظروف الى ان يقولا الشعر فيمن لا يحسن فيه قول الشعر ، وان يجاريا من لا مناص مـــن مجاراته ، وهذا مما خلف في اعماقهما المرارة والاسى •

ثم جمع بينهما اتفاق الرأى على سوء الاوضاع الداخلية ، ومرّ ذلك هينا نزرا في شعريهما ، لم يتخذ سبيله الى الخصومة التامة والعداء المعلن ، وكم كان حريا بهما ان يفعلا ذلك ، وان ينضويا تحت لـــواء الرفض ، كما فعل شعراء من قبلهم كالرصافي والشبيبي وغيرهما •

ونالت مأساة فلسطين من شعرهما الكثير ، وغلبت الحماسة على ما نظما ، وبرز في شعر كمال الحس الديني ، كما عني الناصرى كثـــيرا باستصراخ الماضي ، وابراز الامجاد الباذخة ، ليصلا بذلك الى ايقـــاظ الهمم ، واعتمدا الارهاص اللفظي كوسيلة للاثارة ، واعتبرا المضامـــين مشاعة ، فاستعارا الكثير من الاخرين ، وكانت التقريرية سمة بارزة في شعرهما •

وتباينا في شأن المرأة ، فكمال نصرت اكثر تأدبا مع المرأة ، واعمق احتراما لدورها في الحياة ، وهو اقرب الى شعر الغزل التقليدى ، الذى يظهر محاسن المرأة ، ويعلي من مكانتها ومواهبها ، ويظهر فتنة في جوانبها الجمالية ، دون ان يلمح او يعرج الى الجسد (ديوان كمال نصرت ، الصفحات : ٢٨٦ ، ٢٨٩ ••) ، يقابل ذلك ـ عند الناصرى ـ دعـــوة

صريحة الى الخنا وتحبيذ الفجور ، والمرأة في نظره خلقت للمتعة ، يمارس عليها الرجل سيادته وسيطرته ، والحب في نظره مغامرة تنتهي الى الجنس فقـــــط .

وانتهى الشاعران الى اليأس والقنوط ، وبدا ذلك قليلا في شعر كمال (ديوان كمال ص ٣٦) ، ولكنه جلي كل الجلاء في شعر الناصرى [٤٢] :

الشـــقا قد فاض حتـــى غمر الارض ظله والســـماء
فأنظر الكون من جماد وحـي لترى الكل في الدنيـا تعســاء

وقـــال [٤٣] :

انَّ في الموت راحة لشـــقي يقطع العمر بالعنـــا والعذاب

اتمنى ان ينسحب الاهتمام على شعراء الوسط فينالوا حظّهم وافرا من دراسة الباحثين ، وعناية النقاد ، ففي نتاجهم ودراساتهم آفاق جديرة بكل تقدير ، كما انهم كانوا يعايشون فترة مخاض عسيرة من تاريخ العراق الحديث لابد من ابرازها .